

تفسير ابن كثير

لما رأى زكريا عليه السلام أن ^١ يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء طمع حينئذ في الولد وكان شيخا كبيرا قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبا وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيا وقال { رب هب لي من لدنك } أي من عندك { ذرية طيبة } أي ولدا صالحا { إنك سميع الدعاء } قال تعالى : { فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب } أي خاطبته الملائكة شفاهها خطابا أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة { أن ^١ يبشرك بيمينى } أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى قال قتادة وغيره : إنما سمي يحيى لأن ^١ أحياء بالإيمان وقوله { مصدقا بكلمة من ^١ } روى العوفي وغيره عن ابن عباس وقال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسدي والربيع بن أنس والضحاك وغيره في هذه الآية { مصدقا بكلمة من ^١ } أي بعيسى ابن مريم وقال الربيع بن أنس : هو أول من صدق بعيسى ابن مريم وقال قتادة : وعلى سننه ومنهجه وقال ابن جريج : قال ابن عباس في قوله { مصدقا بكلمة من ^١ } قال : كان يحيى وعيسى ابني خالة وكانت أم يحيى تقول لمريم : إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك فذلك تصديقه بعيسى تصديقه له في بطن أمه وهو أول من صدق عيسى وكلمة ^١ عيسى وهو أكبر من عيسى عليه السلام وهكذا قال السدي أيضا .

قوله : { وسيدا } قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم : الحكيم قال قتادة : سيدا في العلم والعبادة وقال ابن عباس والثوري والضحاك : السيد الحكيم التقى قال سعيد بن المسيب : هو الفقيه العالم وقال عطية : السيد في خلقه ودينه وقال عكرمة : هو الذي لا يغلبه الغضب وقال ابن زيد : هو الشريف وقال مجاهد وغيره : هو الكريم على ^١ D .

وقوله : { وحصورا } روى عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء وعطية العوفي أنهم قالوا : الذي لا يأتي النساء وعن أبي العالية والربيع بن أنس : هو الذي لا يولد له وقال الضحاك : هو الذي لا ولد له ولا ماء له وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا يحيى بن المغيرة أنبأنا جرير عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس في الحصور : الذي لا ينزل الماء وقد روى ابن أبي حاتم في هذا حديثا غريبا جدا فقال : حدثنا أبو جعفر محمد بن غالب البغدادي حدثني سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعني ابن العوام عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن ابن العاص - لا يدري عبد ^١ أو عمرو - [عن النبي صلى

اﻟﻌﻠﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﻓﻲ ﻗﻮﻟﻪ : { ﻭﺳﻴﺪﺍ ﻭﺣﺴﻮﺭﺍ } ﻗﺎﻝ : ﺛﻢ ﺗﻨﺎﻭﻝ ﺷﻴﺌﺎ ﻣﻦ ﺍﻟﺄﺭﺽ ﻓﻘﺎﻝ ﻛﺎﻥ ﺫﻛﺮﻩ ﻣﺜﻞ ﻫﺬﺍ] ﺛﻢ ﻗﺎﻝ ﺍﺑﻦ ﺃﺑﻲ ﺣﺎﺗﻢ : ﺣﺪﺛﻨﺎ ﺃﺣﻤﺪ ﺑﻦ ﺳﻨﺎﻥ ﺣﺪﺛﻨﺎ ﻳﺤﻴﻰ ﺑﻦ ﺳﻌﻴﺪ ﺍﻟﻘﻄﺎﻥ ﻋﻦ ﻳﺤﻴﻰ ﺑﻦ ﺳﻌﻴﺪ ﺍﻟﺄﻧﺴﺎﺭﻱ ﺃﻧﻪ ﺳﻤﻊ ﺳﻌﻴﺪ ﺑﻦ ﺍﻟﻤﺴﻴﺐ ﻋﻦ ﻋﺒﺪ ﺍﻟﻌﺎﺹ ﻳﻘﻮﻝ : ﻟﻴﺲ ﺃﺣﺪ ﻣﻦ ﺧﻠﻖ ﺍﻟﻌﺎﺹ ﻻ ﻳﻠﻘﺎﻩ ﺑﺬﻧﺐ ﻏﻴﺮ ﻳﺤﻴﻰ ﺑﻦ ﺯﻛﺮﻳﺎ ﺛﻢ ﻗﺮﺃ ﺳﻌﻴﺪ { ﻭﺳﻴﺪﺍ ﻭﺣﺴﻮﺭﺍ } ﺛﻢ ﺃﺧﺪ ﺷﻴﺌﺎ ﻣﻦ ﺍﻟﺄﺭﺽ ﻓﻘﺎﻝ : ﺍﻟﺤﺴﻮﺭ ﻣﻦ ﻛﺎﻥ ﺫﻛﺮﻩ ﻣﺜﻞ ﺫﻱ ﻭﺃﺷﺎﺭ ﻳﺤﻴﻰ ﺑﻦ ﺳﻌﻴﺪ ﺍﻟﻘﻄﺎﻥ ﺑﻄﺮﻑ ﺃﺻﺒﻌﻪ ﺍﻟﺴﺒﺎﺑﻪ ﻓﻬﺬﺍ ﻣﻮﻗﻮﻑ ﺃﺼﺢ ﺇﺳﻨﺎﺩﺍ ﻣﻦ ﺍﻟﻤﺮﻓﻮﻉ ﺑﻞ ﻭﻓﻲ ﺻﺤﻪ ﺍﻟﻤﺮﻓﻮﻉ ﻧﻈﺮ ﻭﺍﻟﻌﺎﻟﻢ ﻭﺭﻭﺍﻩ ﺍﺑﻦ ﺍﻟﻤﻨﺬﺭ ﻓﻲ ﺗﻔﺴﻴﺮﻩ : ﺣﺪﺛﻨﺎ ﺃﺣﻤﺪ ﺑﻦ ﺩﺍﻭﺩ ﺍﻟﺴﻤﻨﺎﻧﻲ ﺣﺪﺛﻨﺎ ﺳﻮﻳﺪ ﺑﻦ ﺳﻌﻴﺪ ﺣﺪﺛﻨﺎ ﻋﻠﻲ ﺑﻦ ﻣﺴﻬﺮ ﻋﻦ ﻳﺤﻴﻰ ﺑﻦ ﺳﻌﻴﺪ ﻋﻦ ﺳﻌﻴﺪ ﺑﻦ ﺍﻟﻤﺴﻴﺐ ﻗﺎﻝ : ﺳﻤﻌﺖ ﻋﺒﺪ ﺍﻟﻌﺎﺹ ﻳﻘﻮﻝ : [ﻗﺎﻝ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻠﻪ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﻋﻠﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﻣﺎ ﻣﻦ ﻋﺒﺪ ﻳﻠﻘﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﺇﻻ ﺫﺍ ﺫﻧﺐ ﺇﻻ ﻳﺤﻴﻰ ﺑﻦ ﺯﻛﺮﻳﺎ ﺇﻥ ﺍﻟﻠﻪ ﻳﻘﻮﻝ { ﻭﺳﻴﺪﺍ ﻭﺣﺴﻮﺭﺍ } ﻗﺎﻝ : ﻭﺇﻧﻤﺎ ﺫﻛﺮﻩ ﻣﺜﻞ ﻫﺪﺑﻪ ﺍﻟﺜﻮﺏ ﻭﺃﺷﺎﺭ ﺑﺄﻧﻤﻠﺘﻪ] ﻭﻗﺎﻝ ﺍﺑﻦ ﺃﺑﻲ ﺣﺎﺗﻢ : ﺣﺪﺛﻨﺎ ﺃﺑﻲ ﺣﺪﺛﻨﺎ ﻋﻴﺴﻰ ﺑﻦ ﺣﻤﺎﺩ ﻭﻣﺤﻤﺪ ﺑﻦ ﺳﻠﻤﻪ ﺍﻟﻤﺮﺍﺩﻱ ﻗﺎﻟﺎ : ﺣﺪﺛﻨﺎ ﺣﺠﺎﺝ ﺑﻦ ﺳﻠﻴﻤﺎﻥ ﺍﻟﻤﻘﺮﻱ ﻋﻦ ﺍﻟﻠﻴﺚ ﺑﻦ ﺳﻌﺪ ﻋﻦ ﻣﺤﻤﺪ ﺑﻦ ﻋﺠﻼﻥ ﻋﻦ ﺍﻟﻘﻌﻘﺎﻉ ﻋﻦ ﺃﺑﻲ ﺻﺎﻟﺢ ﻋﻦ ﺃﺑﻲ ﻫﺮﻳﺮﻩ [ﺃﻥ ﺍﻟﻨﺒﻲ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﻋﻠﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﻗﺎﻝ : ﻛﻞ ﺍﺑﻦ ﺃﺩﻡ ﻳﻠﻘﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﺑﺬﻧﺐ ﻳﻌﺬﺑﻪ ﻋﻠﻴﻪ ﺇﻥ ﺷﺎﺀ ﺃﻭ ﻳﺮﺣﻤﻪ ﺇﻻ ﻳﺤﻴﻰ ﺑﻦ ﺯﻛﺮﻳﺎ ﺇﻧﻪ ﻛﺎﻥ ﺳﻴﺪﺍ ﻭﺣﺴﻮﺭﺍ ﻭﻧﺒﻴﺎ ﻣﻦ ﺍﻟﺼﺎﻟﺤﻴﻦ ﺛﻢ ﺃﻫﻮﻱ ﺍﻟﻨﺒﻲ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﻋﻠﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﺇﻟﻰ ﻗﺬﺍﺓ ﻣﻦ ﺍﻟﺄﺭﺽ ﻓﺄﺧﺬﻫﺎ ﻭﻗﺎﻝ : ﻭﻛﺎﻥ ﺫﻛﺮﻩ ﻣﺜﻞ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﻘﺬﺍﺓ] .

ﻭﻗﺪ ﻗﺎﻝ ﺍﻟﻘﺎﺯﻱ ﻋﻴﺎﺹ ﻓﻲ ﻛﺘﺎﺑﻪ ﺍﻟﺸﻔﺎﺀ : ﺍﻋﻠﻢ ﺃﻥ ﺗﻨﺎﺀ ﺍﻟﻠﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﻋﻠﻰ ﻳﺤﻴﻰ ﺃﻧﻪ ﻛﺎﻥ { ﺣﺴﻮﺭﺍ } ﻟﻴﺲ ﻛﻤﺎ ﻗﺎﻟﻪ ﺑﻌﺰﻩ ﺑﻌﺰﻩ ﺇﻧﻪ ﻛﺎﻥ ﻫﻴﻮﺑﺎ ﺃﻭ ﻻ ﺫﻛﺮ ﻟﻪ ﺑﻞ ﻗﺪ ﺃﻧﻜﺮ ﻫﺬﺍ ﺣﺬﺍﻕ ﺍﻟﻤﻔﺴﺮﻳﻦ ﻭﻧﻘﺎﺩ ﺍﻟﻌﻠﻤﺎﺀ ﻭﻗﺎﻟﻮﺍ : ﻫﺬﻩ ﻧﻘﻴﺼﺔ ﻭﻋﻴﺐ ﻭﻻ ﺗﻠﻴﻖ ﺑﺎﻟﺄﻧﺒﻴﺎﺀ ﻋﻠﻴﻬﻢ ﺍﻟﺴﻼﻡ ﻭﺇﻧﻤﺎ ﻣﻌﻨﺎﻩ ﺃﻧﻪ ﻣﻌﺴﻮﻡ ﻣﻦ ﺍﻟﺬﻧﻮﺏ ﺃﻱ ﻻ ﻳﺄﺗﻴﻬﺎ ﻛﺄﻧﻪ ﺣﺴﺮ ﻋﻨﻬﺎ ﻭﻗﻴﻞ ﻣﺎﻧﻌﺎ ﻧﻔﺴﻪ ﻣﻦ ﺍﻟﺸﻬﻮﺍﺕ ﻭﻗﻴﻞ ﻟﻴﺴﺖ ﻟﻪ ﺷﻬﻮﺓ ﻓﻲ ﺍﻟﻨﺴﺎﺀ ﻭﻗﺪ ﺑﺎﻥ ﻟﻚ ﻣﻦ ﻫﺬﺍ ﺃﻥ ﻋﺪﻡ ﺍﻟﻘﺪﺭﺓ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﻨﻜﺎﺡ ﻧﻘﺺ ﻭﺇﻧﻤﺎ ﺍﻟﻔﻀﻞ ﻓﻲ ﻛﻮﻧﻬﺎ ﻣﻮﺟﻮﺩﺓ ﺛﻢ ﻳﻤﻨﻌﻬﺎ ﺇﻣﺎ ﺑﻤﺠﺎﻫﺪﺓ ﻛﻌﻴﺴﻰ ﺃﻭ ﺑﻜﻔﺎﻳﺔ ﻣﻦ ﺍﻟﻠﻪ ﻛﻴﺤﻴﻰ ﻋﻠﻴﻪ ﺍﻟﺴﻼﻡ ﺛﻢ ﻫﻲ ﻓﻲ ﺣﻖ ﻣﻦ ﻗﺪﺭ ﻋﻠﻴﻬﺎ ﻭﻗﺎﻡ ﺑﺎﻟﻮﺍﺟﺐ ﻓﻴﻬﺎ ﻭﻟﻢ ﺗﺸﻐﻠﻪ ﻋﻦ ﺭﺑﻪ ﺩﺭﺟﺔ ﻋﻠﻴﺎ ﻭﻫﻲ ﺩﺭﺟﺔ ﻧﺒﻴﻨﺎ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﻋﻠﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﺍﻟﺬﻱ ﻟﻢ ﻳﺸﻐﻠﻪ ﻛﺜﺮﺗﻬﻦ ﻋﻦ ﻋﺒﺎﺩﺓ ﺭﺑﻪ ﺑﻞ ﺯﺍﺩﺓ ﺫﻟﻚ ﻋﺒﺎﺩﺓ ﺑﺘﺤﺼﻴﻨﻬﻦ ﻭﻗﻴﺎﻣﻪ ﻋﻠﻴﻬﻦ ﻭﺍﻟﻜﺴﺎﺑﻪ ﻟﻬﻦ ﻭﻫﺪﺍﻳﺘﻪ ﺇﻳﺎﻫﻦ ﺑﻞ ﻗﺪ ﺻﺮﺡ ﺃﻧﻬﺎ ﻟﻴﺴﺖ ﻣﻦ ﺣﻈﻮﻡ ﺩﻧﻴﺎﻩ ﻫﻮ ﻭﺇﻥ ﻛﺎﻧﺖ ﻣﻦ ﺣﻈﻮﻡ ﺩﻧﻴﺎ ﻏﻴﺮﻩ ﻓﻘﺎﻝ : [ﺣﺐ ﺇﻟﻲ ﻣﻦ ﺩﻧﻴﺎﻛﻢ] ﻫﺬﺍ ﻟﻔﻈﻪ ﻭﺍﻟﻤﻘﺴﻮﺩ ﺃﻧﻪ ﻣﺪﺡ ﻟﻴﺤﻴﻰ ﺑﺄﻧﻪ ﺣﺴﺮ ﻟﻴﺲ ﺃﻧﻪ ﻻ ﻳﺄﺗﻲ ﺍﻟﻨﺴﺎﺀ ﺑﻞ ﻣﻌﻨﺎﻩ ﻛﻤﺎ ﻗﺎﻟﻪ ﻫﻮ ﻭﻏﻴﺮﻩ : ﺃﻧﻪ ﻣﻌﺴﻮﻡ ﻋﻦ ﺍﻟﻔﻮﺍﺣﺶ ﻭﺍﻟﻘﺎﺩﻭﺭﺍﺕ ﻭﻻ ﻳﻤﻨﻊ ﺫﻟﻚ ﻣﻦ ﺗﺯﻭﻳﺠﻪ ﺑﺎﻟﻨﺴﺎﺀ ﺍﻟﺤﻼﻝ ﻭﻏﺸﻴﺎﻧﻬﻦ ﻭﺇﻳﻼﺩﻫﻦ ﺑﻞ ﻗﺪ ﻳﻔﻬﻢ ﻭﺟﻮﺩ ﺍﻟﻨﺴﻞ ﻟﻪ ﻣﻦ ﺩﻋﺎﺀ ﺯﻛﺮﻳﺎ ﺍﻟﻤﺘﻘﺪﻡ ﺣﻴﺚ ﻗﺎﻝ : { ﻫﺐ ﻟﻲ ﻣﻦ ﻟﺪﻧﻚ ﺩﺭﻳﺔ ﻃﻴﺒﺔ } ﻛﺄﻧﻪ ﻗﺎﻝ : ﻭﻟﺪﺍ ﻟﻪ ﺩﺭﻳﺔ ﻭﻧﺴﻞ ﻭﻋﻘﺐ ﻭﺍﻟﻠﻪ ﺳﺒﺤﺎﻧﻪ ﻭﺗﻌﺎﻟﻰ ﺃﻋﻠﻢ .

ﻭﻗﻮﻟﻪ : { ﻭﻧﺒﻴﺎ ﻣﻦ ﺍﻟﺼﺎﻟﺤﻴﻦ } ﻫﺬﻩ ﺑﺸﺎﺭﺓ ﺛﺎﻧﻴﺔ ﺑﻨﺒﻮﺓ ﻳﺤﻴﻰ ﺑﻌﺪ ﺍﻟﺒﺸﺎﺭﺓ ﺑﻮﻻﺩﺗﻪ ﻭﻫﻲ

أعلى من الأولى كقوله لأم موسى { إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين } فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر { قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال } أي الملك { كذلك } يفعل ما يشاء { أي هكذا أمر } عظيم لا يعجزه شيء ولا يتعاطمه أمر { قال رب اجعل لي آية } أي علامة أستدل بها على وجود الولد مني { قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا } أي إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح كما في قوله : { ثلاث ليال سويا } ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال فقال تعالى : { واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار } وسيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم إن شاء الله تعالى